

الأدب الخيالي والتعليم

قرأنا من مدة قريبة أن بعض الجامعات الاوربية والأمريكية صارت تعنى بتعليم الطلبة طرق السياقة المأمونة للاتومبيل ، وهذا عمل يستغرب من الجامعة أو المدرسة التي تعودنا أن نتلقى منها مواد دراسية أو ثقافية ، ولكن الحقيقة أن رجال التعليم المعصرين قد صاروا يدركون من التعليم غاية تتضح لأذهانهم وتناكد في وجدانهم وهي ضرورة الملاءمة بين الطالب والبيئة سواء أكانت هذه البيئة طبيعية أم اجتماعية ، وما دامت البيئة المتمدنة في عصرنا تحفل بالأتومبيلات ويتعرض كثير من الجمهور لأخطارها فإن من الواجب المحتوم أن يتعلم كل شاب أو فتاة كيف يسوق أتومبيله أحسن السياقة وكيف يتقن الخطر سواء أكان راجيا أم راجلا .

وعلى هذا المبدأ يجب أن يختلف التعليم باختلاف البيئة التي يعيش وسوف يعيش فيها المتعلم ، وإذا نحن نظرنا إلى التعليم من هذه الزاوية تغير نظرنا له ، لأننا نستطيع في كل وقت أن نسأل : لماذا نعلم التلميذ هذه المادة ؟ ونستطيع أن نختار من المواد ما يزيد الملاءمة بين التلميذ وبيئته الطبيعية أو بيئته الاجتماعية هذه الملاءمة التي تجعله شخصا متعاوناً مع المجتمع الذي يعيش فيه .

وقد يقال إن هناك من المواد الدراسية أو الثقافية ما لا تقصد منه الملاءمة الطبيعية أو الاجتماعية ، مثل الفلسفة أو الفلك أو دراسة الفنون للذة لا للكسب . ولكن هذا خطأ . لأن لكل هذه الدراسات قيمتها الاجتماعية . اذ هي جميعها ثمرة هذا المجتمع الذي أكتسبها قيمتها والذي بدونها ليست لها قيمة . اذ ما هي قيمة الفلسفة أو الفلك أو الفنون بلا مجتمع ؟ بل نحن حين نتكلم بلغة ما ونتفاهم بالألفاظ والعبارات والقيم المادية أو الروحية انما نتمسك على المقاييس التي وضعها لنا المجتمع .

فإذا نظرنا إلى المدرسة الابتدائية المصرية مثلا وحاولنا أن نعين المواد الدراسية بحيث تلائم المجتمع أو نقصد موادها الحاضرة من هذه الناحية وجدنا أن المجال يتسع للكثير من النقد السليبي والايجابي معا . ولنضرب مثلا بعض هذه المواد :

ففى مدرسة ابتدائية للبنات نجد مسائل عن الحساب تتعلق بتحويل الإردب الى مكابيل انجليزية هي البوشل وغيره . أو نجد مسائل تتعلق بالأمتار التى تحول الى أميال وباردات . وهذا كله وأشباهه لا يساعد الفتاة على الملازمة بينها وبين المجتمع المصرى . اذ هى لن ترى فى حياتها مكبال البوشل وان تحتاج الى درس المقاييس أو الموازين الألمانية أو الإنجليزية . وأجدر من هذا الدرس أن نجعل المسائل الحسابية تتصل بحياتها أو تحل مشكلاتها . لأن درس الحساب يجب الا يكون أرقاما مجردة تجرى فى الهواء والمباء، بل يجب أن يتصل بالحياة التى ستعيشها الفتاة كما يجب أن تكون معلمة الحساب ماهرة مدربة فى شؤون الحياة . واذن يمكننى أن اتخيل مسائل الحساب التى تعطى للفتاة التى تعلمت قواعد الحساب الاربع وحساب الكسور ، على الأسلوب التالى :

(١) لنفرض أنك اعطيت مائة جنيه لكى تنفقتها على بيت أنت سيدته مدة عام فكيف تنفقتها بحيث يكفى هذا المبلغ حاجات الطعام وايجار المنزل وسائر الحاجات مع فرض أنك تعيشين مع زوجك وابنتك التى لا يزيد عمرها على خمس سنوات ؟

(٢) اعطيت فاطمة ٢٥ قرشا لكى تنفق منها على طعام يوم بمنزلا فكيف تنفق هذا المبلغ مع العلم بأن سكان هذا المنزل هم أمها وثلاثة من الأخوة أصغر منها أكبرهم لا تزيد سنه على عشر سنوات ؟

(٣) اشترت زينب زوجين من الأرناب بعشرة قروش وزوجين من الحمام بخمسة قروش . فكم تحتاج هذه الدواجن من المال لإطعامها هى وتاجها مدة عام؟ وهل تكسب منها أم تخسر ؟

مثل هذه المسائل هى مسائل حسابية . ولكن الحساب هنا عرضى . أما الموضوع الأصيل فهو " الحياة " .

فليس فى حياة الفتاة أرض تشتري بالفدان المصرى وتباع بالفدان الانجليزى . وليس فى حياتها مكابيل مصرية تحول الى مكابيل فرنسية ، وليس فى حياتها قطارات يقوم أحدها من الإسكندرية والثانى من القاهرة فى وقت واحد وتطالب هى بتعيين المكان الذى يتلاقان فيه . وليس فى حياتها ما تصبه حنفية من ماء لتلأ حوضا له بالوعة تفرغه . فان الفتاة تتعلم الحساب لكى تعرف كيف تشتري اللحوم والخضراوات والملابس وتودى ايجار المنزل . وقد تشتري من وقت لآخر عقارا أو قد تفتح حسبا جاريا فى بنك . فيجب أن تدور مسائل الحساب حول هذه الموضوعات . ويجب أن تختلف فتاة الريف من فتاة المدينة . ولعله مما يفيد هنا أن نذكر أن بعض البنوك فى أمريكا قد فتحت حساب جاريا للصبيان لكى يتعودوا المعاملات المالية منذ صباهم .

وعلى هذا المبدأ يجب أن نعلم الفتاة حساب الأتقة والرطل بحيث تزن بهما وتعرف الصنجات . وبدلا من أن نعطيها مطرة نعطيها مترا كاملا لكي تقيس به ، ونعلمها كيف تقيس القماش الذي يكفى امتستانها وتقيس البساط الذي يكفى لفرقتها .

وإذا تركنا الحساب ونظرنا إلى الجغرافيا ، فإن أول ما ننتبه به أن نعلم الفتاة التي تعيش في القاهرة جغرافية القاهرة وضواحيها بحيث تستطيع أن ترسم أحياءها . ثم جغرافية مصر ثم جغرافية العالم . ويجب أن تأخذ السياحة المكثمة الثلاثة بها في هذه الدروس باعتبارها الجغرافية العملية بحيث تزور الفتاة المتاحف والمعارض والضواحي مع الكثير من الثقافة البدائية التي تعرفها فرق الكشافة .

أما جغرافية العالم فيجب أن تكون تلك الجغرافية الحية أي أن يكون موضوعها الانسان فهو الصورة الأصلية ، أما فرش الصورة فهو الجبال والأنهار والمحصولات والصناعات والمدن والبحار . أليس من العجيب أننا ونحن صفار ندرس عن الصين جبالها وأنهاها وبحيراتها ومدنها مما يشغل على اللسان لفظه ويشق حفظه في حين أننا عند ما تكبر نقرأ الكتب اللذيذة الموضحة بالصور الملونة عن حياة الصينيين وأديانهم وحضارتهم وآثارهم مما تاذ قراءته ؟

فاذا كان ندرس التاريخ واجبا فان الالتفات يجب أن يتجه إلى الحال السياسية القائمة في العالم وإلى زعماء السياسة في الأقطار المختلفة ، ثم تنتقل من العصر الحاضر إلى العصور السابقة ، وهذا الترتيب يجعل عصر الفراعنة من الدروس التي يجب أن تؤجل إلى الأقسام الثانوية .

هذه أمثلة ضربناها سمرعا وغايتنا أن نرين أن المادة الدراسية ليست لها قيمة في ذاتها وإنما قيمتها في الحياة الاجتماعية وفي تأهيل التلميذ أو الطالب لأن يعيش في بيئته الطبيعية والاجتماعية أحسن العيش . وبالطبع يدخل في هذه الملاءمة أن نثير ذهنه بعلوم ومعارف مختلفة ، وأن نخلق في نفسه ذلك الاتجاه الذي يجب أن يرافقه مدى الحياة بحيث يعيش طالبا يقرأ وينتقد نفسه ويستريد من الثقافة ويشتهيها ويعرف كيف وأين يستريد منها . ويجب لهذا السبب ألا نرحم عقول التلاميذ أو الطلبة بمواد دراسية مالم تكن لها علاقة صحيحة بحياتهم . أي يجب أن نتكف عن تلقينهم مواد نعتقد أنها تدرّب ذهنى فقط . وإذا مرنا على هذا المبدأ فإننا نجد أن مقدارا كبيرا مما نسميه في الوقت الحاضر دروسا قد بدنا لنا بلا قيمة ، كما أن مواد أخرى تتجيم لنا قيمتها لأنها تلابس الحياة أو البيئة . فقد بتضح لنا أن سياقة الأتومبيل أنفع للتلميذ من دراسة الجبر ، أو أن زيارة لروض الفرج حيث تساع الحبوب أنفع من درس البوشل والهندردويت والكولوجرام والأترون المكاييل أو الموازين الانجليزية أو الفرنسية .